بسم الله الرحمن الرحيم

مدارس التجديد
في
الشعر العباسي

وأثرها في ازدهار النقد الأدبي

الأستاذ الدكتور
عبد الله حسين على سليمان
أستاذ الأدب والنقد بالكلية

مدارس التجديد فى الشعر العباسى
واثرها فى ازدهار النقد الأدبى

❋ نشأ النقد الأدبى نشأة مبكرة وعاصر الأدب في مراحله الأولى وتمشى معه وسايره في كل عصوره التاريخية ، وكان العرب منذ جاهليتهم الأولى يتمتعون بحظ كبير من الحرية فى القول وفي العمل ولم يكن يعترض سبيل هذه الحرية رغبة فى خير أو رهبة من شر ، ولقد كان حرصهم بالغاً على أن يوصفوا باللسن والفصاحة والبيان وأن يكون لهم من بلاغة القول ما يحقق لهم إصابة المحز وفصل الخطاب . " ومن المسلم به أن الشعر قد قطع أحقاباً طويلة حتى وصل إلى مرتبة النضج والاكتمال وكان الشعر في كل خطوة من خطوات تطوره يعد عدته للخطوة المقبلة حتى يتهيأ له بلوغ الغاية التى يتطلع إليها " [1] .

والنقد الأدبى بوجه خاص يعتبر ضرورة من ضرورات تقدم الأدب والرقى به والوصول إلى أرفع مستوى وتحقيق أقصى درجات الازدهار . [2] وأقدم صورة للنقد تتمثل فى نقد الأديب لما ينتجه فلا ينظم شاعر أو ينثر كاتب دون أن يتبع بعض القواعد والمبادىء التى يعتمد عليها فى بناء عمله الأدبى فهو في خلقه الأدبى دائب على المراجعة والتهذيب والصقل وهو فى عمله هذا يبذل جهد الناقد . [3] ويتتبع الآراء النقدية التي وصلتنا يمكن القول بأنها في جملتها تعتمد على الذوق الفطرى والنظرة الخاصة وذلك الانطباع العام عن الشعر والشعراء ولم تكن هذه الآراء تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان .. لقد كانت تلك النظرات النقدية تتسم بالذاتية الصادرة من حس الناقد وشعوره تجاه النص الشعرى .

ونستطيع أن نقرر أن الأسس والمبادىء العامة للنقد الأدبى قد أخذت فى

---

(١) تاريخ النقد الأدبى لطه ابراهيم صـ ١٤٧ .
(٢) أصول النقد العربى للشايب صـ ١٤٠ .
(٣) المدخل إلى النقد الأدبى لمحمد غنيمى هلال صـ ٩ .

التميز والوضوح فى صدر الاسلام بعد أن لم تكن هنالك أسس واضحة أو معالم ثابتة ، وليس معنى ذلك أن تلك الأسس النقدية قد استوعبت كل جهات الفن الأدبى فقد ظهر أن تلك الأصول كانت تقتصر على بعض مايجب أن يراعى فى الألفاظ باستعمال المتداول المألوف ونفى كل ما ينم عن التكلف فى الصياغة [1] .

وفى عصر بنى أمية وضعت الأسس الأولى للعلوم العربية التى أصبح لكل علم منها قواعد ومصطلحات تمت بعد ذلك وازدهرت فى عصر بنى العباس وكانت هذه الأسس بمثابة النواة فى علوم العربية كما كانت - تبعاً لذلك - أساساً من أسس النقد العربى .

ولم تكن الآراء النقدية في هذا العصر تستوعب كل الجوانب وإنما كانت ترتكز غالباً على جانب المعنى وقد تتناول شيئاً من نقد الخيال ، ولم يكن هناك نقد فى الألفاظ والأساليب والصياغة إلا فى القليل ، كما يلاحظ أن بعض الأحكام التى كانت تصدر فى المجالس الأدبية كانت مطبوعة بطابع العجلة والارتجال بالعبارات الموجزة والكلمات المقتضبة ، وكثير من تلك الآراء النقدية لم يصدر عن البحث العميق والدراسة المستوعبة .

ويقرر الدكتور مندور أن هذا النقد الذوقى يعيبه أمران : عدم وجود منهج وعدم التعليل المفصل ، وهذان العيبان واضحان فى الكثير من الأحكام التقليدية المروية فى كتب الأدب فهى لا تستند إلى تحليل لنصوص أو إلى نظر شامل فيما قال هذا الشاعر أو ذاك . [2]

ومع ذلك فقد كان عصر بنى أمية حافلاً بالنشاط الأدبى فياضاً بالآثار الزاخرة وكان للخلفاء عناية بالغة بالأدب والأدباء وكانت مجالسهم عامرة بالشعراء وكبار الكتاب والبلغاء وندواتهم تموج بروادها من الفحول والأعلام ، كما كانت

---

(١) دراسات في نقد الأدب العربى لطبانة صـ ٨١ ، صـ ٨٢ .
(٢) النقد المنهجى عند العرب صـ ١٥ ، صـ ١٦ .

الحواضر تزهى بآثارها فى مجال العلم والأدب في يثرب ومكة والبصرة والكوفة ودمشق وكانت المنافسة على أشدها بين هذه الحواضر والخصومات مشبوبة والعصبية ثائرة فقامت للشعر دولته وتحققت له حريته ونصبت له موازين احتشد لها الذهن وأرهف فيها الذوق وتنبهت السليقة وكثرت الملاحظات والمراجعات فأصبح النقد أكثر دقة وأوفر عمقاً وأدنى إلى التحليل والتنويع . (١)

وقد بلغ النقد الأدبى في القرن الثانى مرحلة هامة من مراحل التطور تتفق مع تلك النهضة الشاملة فى مجالات العلم والفكروالثقافة والأدب وأصبحت أقوال الأدباء والنقاد ونظرائهم تعتمد أساساً على علم ودراية وخبرة وثقافة وفن وذوق .

وقد أثر من نقد العلماء بعد جهودهم التى بذلوها فى الاستقراء والتقصى مايدل على النقد الذى يمس الأدب فى عناصره الأصيلة ويتناول الوزن والشكل والأسلوب والمضمون . وكان للشعراء أحكام فنية بالغة الروعة بما يبدو فيها من أثر الفهم العميق والتعرف علي الأسباب والتنبه إلى أثر البيئة فى الشعر واختلاف الأذواق باختلاف البيئات كما أنهم فطنوا إلى معنى الوحدة فى القصيدة وألا يكون بين أبياتها هوة وانقطاع بل يجب أن يكون بينها ترابط واتصال . (٢)

لقد كان للمجالس العلمية والأدبية علي كل المستويات دور بالغ فى الحركة النقدية ، فقد خلفت هذه المجالس تراثاً كبيراً من الأدب والنقد استوعبتها أمهات كتب الأدب لأن هذا التراث الحافل كان مقوماً أساسياً من مقوماتها . ومما تجدر الاشارة إليه أن هذه الآراء والنظريات النقدية كانت ممتزجة بالدراسات البلاغية وبالبحوث اللغوية والنحوية وكانت جهود علماء اللغة فى النقد أقوى وأظهر وكان دورهم بالغ الأهمية بلا جدال فقد تناولوا فنون الشعر ونقدوها وأشاروا إلى جوانب الإجادة والابداع فيها ونبهوا علي نواحى الضعف والرداءة وأسباب القصور التى

---

(١) الأدب العربى في ظلال الأمويين والعباسيين صـ ٣٤٥ .
(٢) زهر الآداب جـ ٣ صـ ١٦٥ .

تعتريها ، كما أنهم وضعوا الشعراء الجاهليين في طبقات وكانت لهم آراؤهم فى شعراء كل طبقة بل إنهم وازنوا بين الشعراء الإسلاميين وغيرهم من المتقدمين وجمعوا أقوال السابقين من النقاد وأشاروا إلى ما لها من أهمية واهتموا بتمحيص الرواية وجمع الشعر والاحاطة بأخبار الشعراء فكان الأصمعى وخلف وحماد وأبو عبيدة يهتمون براوية الشعر وجمعه ، وكان لخلف شهرة ومكانة فى النقد ، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار ويروى له كثير من الشعر الجيد ، [1] وقد أصلح للأصمعى رواية بيت من شعر جرير وقال اروه كذلك فلقد كانت الرواة قديماً تصلح شعر الأوائل . [2] هكذا كان النقد حتى نهاية القرن الثانى الهجرى . وفى القرن الثالث الهجرى أخذ النقد يستقل بالبحث والتأليف وأقدم وثيقة وصلت إلينا في هذه الدراسات كانت وليدة هذا القرن وهما صحيفة بشر بن المعتمر ٢١٠ هـ وهى مجموعة من النصائح تقدم بها كاتبها إلى أصحاب صناعة الأدب وأنسب الأوقات للعمل الأدبى والحالة النفسية وتأثيرها فى إنتاج الأديب . [3] وكان للنهضة الأدبية التى تمثلت فى حركات التجديد ومدارسه آثارها فى ظهور أعلام جهابذة فى مجال النقد كانت لهم بحوث قيمة ازدهر بها النقد العربى كابن سلام ٢٣١ هـ والجاحظ ٢٥٥ هـ وابن قتيبة ٢٧٦ هـ وابن المدبر ٢٧٩ هـ والمبرد ٢٨٥ هـ وابن المعتز ٢٩٦ هـ .

ولأبى تمام (٢٣١هـ) وصية أوصي بها البحترى تعتبر مثالاً من أمثلة النقد الدقيق وأصلاً من أصوله . [4] وهناك غير هؤلاء من طبقة علماء اللغة أبو العميثل ٢٤٠هـ وابن السكيت ٢٤٤هـ وأبو حاتم السجستانى ٢٥٥هـ وأبو الفضل الرياشى ٢٥٧هـ والسكرى ٢٧٥هـ وثعلب ٢٩١هـ ...

وابن سلام فى كتابه " طبقات الشعراء " يتناول طبقات شعراء الجاهليين

---

(١) الشعر والشعراء صـ ٣٠٨ .
(٢) الحياة الأدبية فى العصر العباسى لخفاجى صـ ٩٥ .
(٣) قدامة بن جعفر لبدوى طبانة صـ ١٨ .
(٤) انظر الوصية فى زهر الآداب جـ ١ صـ ١٢٠، صـ ١٢١ .

وطبقات الشعراء الإسلاميين وكل منهما مستقل في كتاب . [1] وبحوث الكتاب تتضمن ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية وتتناول شرح الشعر العربى وأثره ونشأته وتطوره وتنقله فى القبائل وانتحاله والشعر الصحيح والشعر المصنوع وما حمل علي الشعراء مما ليس لهم .

ولابن سلام نظرات نقدية صائبة تضفى على كتابه أهمية بالغة وتسمو بمؤلفه إلى مرتبة العلماء المحققين " ففى كتابه صورة لحياة النقد منذ نشأ فى الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث وصورة للأنواق المختلفة التى خاضت فيه ، ولقد كانت الأفكار فى النقد مبعثرة لا يربطها رابط حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها وألف بين المتشابه منها بروح علمى قوى " [2] وقد نتساءل عن السر في اهمال ابن سلام لذكر من عاصره من الشعراء كمروان ابن أبى حفصة ، وبشار بن برد ، وأبى نواس ، ومسلم ابن الوليد ، وأبى تمام . وقد تسهل الاجابة بأن أشعار هؤلاء المحدثين كانت دائماً موضوع خصومة ومثار جدل بين رواة اللغة وعلماء النحو ، وابن سلام كان واحداً منهم . وقد تكون المعاصرة فى حد ذاتها سبباً في ذلك ، إذ أن من اليسير أن ندرك أن تقرير الأحكام وتقسيم الطبقات يحتاج إلى وقت تتبلور فيه المذاهب والاتجاهات وتعرف آثارها ولم يكن ذلك متاحاً أو متهيئاً بالقدر الذي يسمح لابن سلام أن يتحدث عن طبقات ، ولست أتفق مع الدكتور بدوى طبانة إذ يرى أن العلة راجعة إلى تخوف النقاد من ألسنة الشعراء إذا ما تعرضوا لأشعارهم وكشفوا عن آرائهم فيها ، [3] فلقد كان هؤلاء العلماء على قدر كبير من الشجاعة والجرأة والوعى والدراية ، وماكان لألسنة الشعراء مهما بلغت حدتها أن تكفهم عن شيء أو تسكتهم وتمسك أقلامهم .

أما الجاحظ فقد كان لكتابه " البيان والتبيين " شأن وقدر وقد تمثلت فيه ثروة

---

(١) الفهرست صـ ١٦٥ .
(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب صـ ٩٠ .
(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى صـ ١٢٠ .

قيمة من الآراء النقدية والنظرات الصائبة والأقوال المأثورة والموازنات الدقيقة والتعرض لأهم القضايا الأدبية التى تثار فهو يحلل فى دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر ويتناول قضية اللفظ والمعنى ويشير إلى السرقات الأدبية ويتحدث عن الجيد من الأشعار موضحاً ما يمتاز به من مقومات الفن الأصيل كما أثار الجاحظ بحوثاً بلاغية قيمة تتعلق بالبديع والإيجاز والإطناب والتشبيه والاستعارة وغيرها ، وكانت له آراء وأقوال فى الشعراء المحدثين ، وهو ينكر علي المتعصبين تعصبهم ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان وقد أشاد ببشار ورأى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ، ولا مولد أشعر بعد بشار من أبى نواس ، ويقرر أنه ما رأى رجلاً أعلم باللغة ولا أصح لهجة مع مجانبة الاستكراه من أبى نواس ، وينقد أبا العتاهية ويرى أن شعره أملس المتون ليس له عيون لكنه يعجب بقوله : " روائح الجنة فى الشباب " إعجاباً غير محدود .

وابن قتيبة في كتابه " الشعر والشعراء " يرى وجوب اتباع منهج المتقدمين فى نظم القصيدة . [1] لكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للمحدث وإنما يعرف لكل قدره ومنزلته من الاجادة والابداع . وقد أحصى ابن قتيبة فى هذا الكتاب مآخذ العلماء علي الشعراء ، كما تكلم عن أقسام الشعر ووجوه استحسانه وتناول بالبحث موضوع السرقات الشعرية والخصومات بين القدماء والمحدثين وتحدث عن الطبع والصنعة واللفظ والمعنى وكانت له آراؤه في المعانى والقيم التى يتناولها الشعراء وكان له اهتمام بدراسة لغة الشعراء وأثر البيئة فيها وتحقيق نسبة الشعر إليهم . [2]

أما النقاد في القرن الرابع الهجرى فقد بلغوا حداً فائقاً من النضج والاكتمال ومن بينهم : جعفر بن قدامة ٣١٩هـ وأبو بكر الصولى ٣٣٦هـ وقدامة بن جعفر ٣٣٧هـ وأبو الفرج الأصفهانى ٣٥٦هـ وابن العميد ٣٦٠هـ والحسن بن بشر

---

(١) الشعر والشعراء صـ ١٤ وما بعدها .

(٢) نفسه صـ ٦٣ ، صـ ٦٩ ، صـ ١٧٦ ، صـ ٢١٥ ، صـ ٢١٦ ، صـ ٢٢٠ ، صـ ٢٢١ ، صـ ٢٢٢ ، صـ ٢٢٥ .

الآمدى ٣٧١هـ والحاتمى ٣٨٨هـ والصاحب بن عماد ٣٨٥هـ وعلى بن عبد العزيز الجرجانى ٣٩٢هـ وابن وكيع ٣٩٢هـ وأبو هلال العسكرى ٣٩٥هـ .

وكانت لهؤلاء النقاد عناية بالغة بأبى تمام والبحترى والمتنبى ، وقد كان بعض هؤلاء النقاد يصدرون فى دراساتهم النقدية عن ثقافات متعددة مما حدا بباحث كالدكتور محمد غنيمى هلال أن يجعل دراسة الأدب العربى وبحوثه النقدية مدينة لكتب أرسطو . [١]

وليس ذلك صحيحاً فقد كانت هناك عوامل كثيرة واتجاهات شتى وأطوار مرحلية واستجابة لظروف الحياة المتغيرة ومطالبها التى لا تقف عند حد ومما لاشك فيه أن يكون لذلك كله تأثيره في الحركة الأدبية والنقدية ولو لم تكن هناك كتب أرسطو ، والباحث نفسه يعترف بذلك إذ يقرر .. أنه لا مجال للشك فى أن نظريات أرسطو لم تؤثر وحدها فى النقد العربى وتوجيهه بل ان هذا التأثير لم يكن ذا شأن كبير لأن الأدب العربى بما يتسم به من طابع المحافظة - والتقليد وبما غلب فيه من الشعر الغنائى ثم لضعف الصلة فيه بين القضايا الأدبية والأهداف الاجتماعية - على حد قوله - قد عاق النقاد عن فهم نظريات أرسطو والتأثر بها حق التأثر " [٢] ويقول فى موضع آخر " وسار النقاد وراء المنتجين من الأدباء ولكن فى تأن وتؤدة وكان أكثرهم فى بادىء الأمر من اللغويين والنحاة ورواة الأشعار القديمة إلى أن وجدت طبقة من النقاد والمنهجيين الذين اعتمدوا على ذوقهم وما استفادوا من خبرة أدبية وطول ممارسة وسعة اطلاع ، وكثير منهم أضافوا إلى ذلك الذوق ماترامى إليهم من آراء القدماء فى النقد والبيان . [٣]

وفى القرن الخامس الهجرى ظهر الامام الحجة عبد القاهر الجرجانى ٤٧١هـ صاحب نظرية العلاقات ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز وقد عاصره أبو على

---

(١) المدخل صـ ١٧٥ .
(٢) المدخل صـ ١٧٦ .
(٣) المدخل صـ ١٧٧ .

الحسن بن رشيق القيروانى ٤٦٣هـ صاحب العمدة في محاسن الشعر وآدابه . وقد جمع فى كتابه الكثير من احكام النقد الأدبى وعلوم البلاغة وغيرها وابن سنان الخفاجي صاحب " سر الفصاحة " وظهر بعد ذلك ابن الأثير ضياء الدين أبو الفتح محمد بن الكريم الموصلى ٦٣٧هـ صاحب " المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر " .

ومما تجدر الاشارة إليه أن علوم البلاغة كانت مرتبطة بهذه الدراسات النقدية ارتباطاً وثيقاً ويتضح هذا فى الكتب التى سميت باسم النقد وبحثت فى أبواب البيان كنقد الشعر والعمدة . (١)

لقد كان لهذه الحركة النقدية اثارها فى ازدهار الشعر العربى بلا جدال ولكن مما لاشك فيه - كذلك - أنه كان لازدهار الشعر العباسى وتطوره آثار بالغة فى اذكاء الخصومات الأدبية وازدهار الدراسات النقدية والبلاغية ، فقد أثار شعر المحدثين ضجة فى أوساط النقاد تمثلت فى تلك الخصومات المحتدمة وكان من آثارها هذه الآراء النقدية الواعية والنظريات الدقيقة الصائبة ، وقد انقسم النقاد ازاء القدامى والمحدثين من الشعراء إلى طبقات : فطائفة تزرى بشعر المحدثين وتختص القدامى بكل اجلال وتقدير ، ومنهم أبو عمرو بن العلاء ١٥٤ هـ الذى كان لا يحتج ببيت اسلامى . (٢) ورأيه فى المولدين يتمثل فى قوله " ماكان من حسن فقد سبقوا إليه وماكان من قبيح فهو من عندهم " . (٣) ومنهم ابن الاعرابى ٢٣١هـ الذى كان يشيد بشعر القدماء ويزرى بأنصار المحدثين وكان يقول في شعر أبى تمام " إن كان هذا شعر فكلام العرب باطل " (٤) وكان يطعن على أبى نواس ويعيب شعره ويروى عنه أنه استحسن شعرا لأبى تمام ولأبى نواس دون أن يعلم أنه لهما وأمر بكتابته ولما عرف نسبته إليهما أمر بتمزيق ماكتب . (٥)

---

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف صـ ٦٨ ط : القاهرة ١٩٢١ .
(٢) الشعر والشعراء صـ ٧ . (٣) العمدة جـ ١ صـ ٧٣ .
(٤) أخبار أبى تمام صـ ٢٤٤ . (٥) الموازنة صـ ٢٢ أخبار أبى تمام صـ ١٧٥ .

وكان يقول : " إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبى نواس وغيره مثل الريحان يشم يوماً ويذوى فيرمى به وأشعار القدما مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً " [1] ومنهم اسحاق الموصلى الذي كان من أنصار الأوائل وتعصب على أبى نواس وطعن على أبى العتاهية . [2] وكان لا يعتد ببشار . [3] وكان يرى أن أبا تمام قد شدد على نفسه . [4]

وطائفة من النقاد كانوا يقدرون الجيد لجودته لا ينظرون إلى قديم أو محدث وهؤلاء هم الذين يحكمون الذوق الأدبى وحده فى الشعر ومنهم الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز . وقد أورد المبرد في كتابه " الكامل " قصيدة ابن مناذر فى رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى ومطلعها : ـ

كل حى لاقى الحِمام فمُودى ∴ مالحى مؤمل من خلود

لا تهاب المنون شيئاً ولا تر ∴ عى على والد ولا مولود

وقال عن ابن مناذر : " كان رجلاً عالماً متقدماً شاعراً مغلقاً وخطيباً مصقعاً وفى دهر قريب فله فى شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته ... " . [5]

وقد رأينا طائفة من النقاد تتخذ من الثقافات المستحدثة مقياساً يحكمون به على الجودة والرداءة على أسس تمتاز بالعمق والدقة وسعة الاطلاع كما فعل قدامة فى كتابه " نقد الشعر " .

وقدامة هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة المضروب به المثل فى البلاغة والذكاء " [6] والذى تركزت في ذهنه عقليات مختلفة وتأثر بآثار متعددة مزجها

---

(١) الموشح صـ ٢٤٦ . (٢) الموشح صـ ٢٨٥ ، صـ ٢٦٣ ، صـ ٢٦٤ .
(٣) الأغانى جـ ٣ صـ ٢٨ . (٤) الموازنة صـ ٨ .
(٥) الكامل جـ ٢ صـ ٢٨٨ ، صـ ٢٨٩ .
(٦) الايضاح فيشرح المقامات لناصر بن عبد السيد المصرى ورقة (٤٠) مخطوط بدار الكتب المصرية (٢٤٩) أدب .

بشخصيته المستقلة وفكره الحر وصاغ من كل أولئك فكرة جديدة شرعت فى حياة النقد الأدبى والبلاغة العربية شرعاً جديداً " . [1]

لقد أتيح لمدارس التجديد في الشعر العباسى أن تكون شيئاً خاصاً متميزاً عما قبلها بخصائصها وسماتها ومذاهبها واتجاهاتها وكان لها بذلك دور فى تحديد ملامح الشعر العباسى فلم يختلط بغيره ولم يتداخل فى سواه مما هيأ للنقاد فرصة مواتية لحكم أقرب ما يكون إلى الصواب في قضية من أهم قضايا النقد وأعنى بها قضية الانتحال فى الشعر العربى القديم تلك القضية التى أشعل جذوتها وأثار لهيبها في العصر الحديث الدكتور طه حسين بما أبداه من آراء في الشعر الجاهلى كانت لها خطورتها وشدة وقعها . وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين أن يسحب هذه القضية على شعر العصر العباسى بغير قليل من التكلف والمغالاة إذ أنه يرجع عوامل الانتحال والعبث فى الأدب العباسي إلى ناحية أدبية قوامها الصراع بين القدماء والمحدثين ، وإلى ناحية دينية تتمثل فى المعارك الدينية والمذهبية التى كانت سائدة ، وإلى ناحية سياسية تتصل بصراع الأحزاب والتيار الشعوبى الجارف ، وإلى ناحية ترجع إلي أولئك الوراقين الذين كانوا يقومون بعملية النسخ والكتابة دون اعتناء بالتحقيق والتروى . [2] والحقيقة أن حركة التدوين والتأليف مع اتساع مجال الرواية وكثرة ما كان يعقد من حلقات ومجالس وما كان يدور فيها من بحوث وآراء ومعارضات ومناقضات ، وتحقيقات ومراجعات وما كانت تتوجه إليه الهمم من اقتناء الدواوين والكتب والسعى فى طلبها وبذل الجهد في سبيل تحقيقها وتمحيصها ... ذلك كله لم يدع المجال مفتوحاً أمام هذا العبث والانتحال الذى يدعيه الباحث فى الشعر العباسى .

وإذا كان بعض المتعصبين من رواة اللغة والنحويين وغيرهم يتحرجون من

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى لطانة صـ ٢٢ .

(٢) على الزبيدى : فى الأدب العباسى صـ ٥٣ ، صـ ٨٣ ، صـ ١٣٦ ، صـ ١٥٠ ، صـ ١٦٧ ، صـ ١٧٥ .

رواية أشعار المحدثين فقد أتيح لهؤلاء المحدثين أن تروى أشعارهم وتدون وتحظى بالعناية والاهتمام من جمهور الكتاب والأدباء ، وقد كان لهذه العناية البالغة بدورها آثارها في حفزهمم النقاد والباحثين إلى التنقية والتمحيص والالتزام بالدقة ومراعاة أصول التحقيق في كل مايتناولونه من أشعار المحدثين .

وقد التفت الصولى إلى هذا الجانب من التحقيق والتمحيص فنراه يصرح فى مقدمة ديوان أبى نواس المخطوط بروايته بأن شعر هذا الرجل مع الاستقصاء والنقد لا يخلو من منحولات متخللة ولا يعرف قائلوها إلا من يتقصاه على الأيام بعناية تامّة . (١)

وقد يكون الخلط والانتحال نتيجة شهرة بعض الشعراء وتألقهم فى باب من أبواب الشعر ولذلك قد ينسب شعر جيد فى غرض من أغراض الشعر إلى من له شهرة معروفة ومنزلة مرموقة فى هذا الغرض من بين الشعراء ، وقد ورد فى كتاب " الفرج والتهانى فى أخبار الحسن بن هانى " : " ماترك الناس شعراً فى الشجاعة إلا أضافوه إلى عنترة العبسى ولا شعراً فى الخمر إلا أضافوه إلى أبى نواس ، ولا شعراً فى ليلى إلا أضافوه إلى المجنون " (٢) وفى كتاب " سرقات أبى نواس " لمهلهل بن يموت بن المزرع : (٣) ثم هم أجمعون مجمعون على أبى نواس وتفضيله على شعراء الناس والعصبية له فلا يسمعون شعراً حسناً فى معناه ولا معنى نادراً في فحواه إلا نسبوه إليه وخلعوا فضيلته عليه ، وحتى أنهم لا يسمعون بوصف خمر ولا ذكر آنية فى شعر إلا أقسموا جهد أيمانهم أن ذلك لأبى نواس " .

وقد أتاحت مدارس التجديد أيضا مجالا خصبا لدراسة الشعر في القرنين الثانى والثالث الهجريين على أساس فكرة المدارس الشعرية التى يلتزم بمنهجها وأسلوبها كثير من الشعراء ويحنون حذوها وينسجون علي منوالها ، فقد كانت هناك

(١) مقدمة ديوان أبى نواس رواية الصولي مخطوط بدار الكتب المصرية (١٢٦٥) أدب .
(٢) الورقة ١ مخطوط مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم (٦٣٢) أدب .
(٣) صـ ٣٢ . تحقيق محمد مصطفى هدارة .

خصائص واتجاهات واضحة وسمات مميزة لأدب هذه المدرسة أو تلك .. ثم كانت هناك أيضا خطوط مميزة قد تنفرد ببعض السمات لكنها لن تخرج بها عن حدود المدرسة الأم التى تنتمى إليها وترتبط بأصولها .

وليس صحيحاً مايدعيه صاحب " اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى " من أنه لا جدوى من دراسة شعر القرن الثانى عن طريق المدارس الشعرية إذ أنه يفترض قصور مثل هذه الدراسة على أى حال ... " . (١)

والحقيقة أن مثل هذه الدراسة جديدة متطورة وهى مع ذلك دراسة ضرورية لتوضيح مسار حركة التجديد في الشعر العباسى علي أسس منهجية قوية وموضوعية خالصة ، ثم إن دراسة المدارس بهذا الاعتبار أدق وأخص من مجرد تتبع اتجاهات الشعر فى فترة ما في حدود تلك الأبواب المعروفة التى طرقها الشعراء والأغراض المتعددة التى تناولوها .

* * * * * * *

* وقد كان من الاتجاهات الشائعة في شعر القرن الثانى الاتجاه إلى الزندقة وكان بشار من بين الشعراء الذين ظهر فى شعرهم هذا الاتجاه أو اتهم به وكان له من آرائه الدينية والفكرية والمذهبية ما جعله هدفاً لهذا الاتهام ، كما كان متهماً أيضاً مع غيره من الشعراء بالانحلال والفجور ... والقضية التى يثيرها هذا الاتهام فيما يتعلق بفن الشعر هى : إلى أى مدى يتأثر الفن الشعرى بالمعيار الدينى والمقياس الأخلاقى ؟

الحقيقة التى لا جدال فيها أن الشعروهو فن من الفنون لا يتأثر بهذه المعايير والمقاييس ولم يتخذ النقاد ومن بينهم القاضى الجرجانى صاحب " الوساطة " من الدين أو الأخلاق أساساً يرفعون به شاعراً ويخفضون آخر ، وربما كانت نزعة الشر

(١) محمد مصطفى هدارة : صـ ١٤٠ .

أقرب إلى طبيعة الشعر وأدنى إلى مفهومه ... فقد روى عن الأصمعى قوله " طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لان " [1] وقوله " الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف " [2] وابن رشيق يقول عن الشعر " ومن فضائله أن الكذب الذى اجتمع الناس علي قبحه حسن فيه " [3] ولقد قيل لبعض الفلاسفة فلان يكذب فى شعره فقال : " يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق يراد من الأنبياء " [4] ويروى صاحب " جمع الجواهر " أن محمد بن القاسم الأنبارى كتب رسالة إلى ابن المعتز فى شأن أبى نواس وأمثاله من شعراء المجون يقول فيها : " جرى فى مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانى والشعر الذي قاله فى المجون وأن لكل ساقطة لاقطة وأن لكلام القوم رواة وكل مقول محمول فكان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ولايدونوه فى كتبهم ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم ... والحسن بن هانى ومن سلك سبيله في الشعر كشفوا للناس عوارهم وهتكوا عندهم أسرارهم وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم وحسنوا ركوب القبائح فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم وأن يستقبح ماستحسنوه ويتنزه من فعله وحكايته ... " [5]

وقد رد عليه ابن المعتز برسالة ورد فيها : " ولم يؤسس الشعر بانيه علي أن يكون المبرز فى ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يقر بصبوة ولم يرخص فى هفوة ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبى الصلت الثقفى وعدى بن زيد إذ كانا أكثر تذكيراً ومواعظ في أشعارهما من امرىء القيس والنابغة ... وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبى ربيعة وبشار وأبى نواس على تعهرهم ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم إلا على ملأ الناس وفى حلق المساجدوهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم " [6] والقاضى الجرجانى يقرر أنه لو كانت الديانة عاراً على الشعر كان سوء الاعتقاد

---

(١) انظر الموشح صـ ٦٢ ، صـ ٧١ الشعر والشعراء صـ ١٧٠ الأسس الجمالية فى النقد العربى صـ ١٧٩ .
(٢) نفسه . (٣) العمدة جـ ١ صـ ١٠ .
(٤) الصناعتين صـ ١٠٣ .
(٥) جمع الجواهر فى الملح والنوادر لأبى إسحاق إبراهيم الحصري القيروانى صـ ٣٣ ط : الرحمانية بمصر .
(٦) نفس المصدر .

سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الربعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . لكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر " . [1] أما قدامة فانه يعبر عن رأيه فى هذه القضية بقوله : " وليس فحاشة المعنى فى نفسه يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة فى الخشب رداءته في ذاته " . [2]

وقد ارتبطت هذه القضية بآراء قيمة تدور حول الحسن والقبيح وما هو جميل في جوهره وماحرم من الجمال وان ظهر فى صورة الجميل ... يقول أبو حيان التوحيدى فى كتابه " الامتاع والمؤانسة " : " فأما الحسن والقبيح فلابد له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور فيرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً ... ومناشىء الحسن والقبيح كثيرة منها طبيعى ومنها بالعادة ومنها بالشرع ومنها بالعقل ومنها بالشهوة فإذا اعتبر هذه المناشىء صدق الصادق منها وكذب الكاذب وكان استحسانه على قدر ذلك ... " [3] ويشيد الإمام الغزالى بالجمال المعنوى وجوهر الحسن فيقول : ـ

" فاعلم أن الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات وأن الصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنية ... " . [4]

---

(١) الوساطة صـ ٥٠ ، صـ ٥١ . (٢) نقد الشعر صـ ١٤ .
(٣) الامتاع والمؤانسة صـ ١٥٠ .
(٤) إحياء علوم الدين صـ ٢٥٧ ومابعدها .

وابن سينا يقرر أن الجميل من حيث هو غاية يختلف عن الغايات الأخرى والغايات عنده ثلاث خير ونافع ولذيذ ، والخير والنافع من حيث هما غايتان لا يختلطان باللذيذ ، واللذة حركة للنفس وتهيؤ يكون بغتة بالحس للأمر الطبيعي الملائم فكل ما يفعل هذه الحركة والتهيؤ فهو لذيذ وما فعل ضدهما فهو مؤلم مؤذ والأمور الملايمة منها ما يلايم بالطبيعة ومنها مايلايم بالعادة ويلايم بالطبيعة والعادة الكسل والتواني والمعصية والدعة والنوم والمشتهيات واللذيذ بهذا الاعتبار لا يقتضي غاية خيرة أو غاية نفعية ، وابن سينا يربط اللذة بالحس في نهاية الأمر فهو يقرر أن فى التخيل لذات أيضا وإن كانت بالحرى أن تنسب إلى الحس فان الذاكرين للذات يلتذون بها ... "[1]

ولقد كان لهذه الاتجاهات المتميزة من زندقة وانحلال فى الشعر العباسى آثارهما في النقد العربى ووقوفه عند حدود الفن والصنعة والتزامه بالتصوير الفنى وأسلوب الصياغة ووسائل الإبداع ومظاهر التجديد مهما كانت طبيعة الموضوع وخصوصية الغرض الذى يتناوله الشاعر فى شعره .

وعلى هذه الأسس الفنية والوسائل الابداعية والمظاهر التجديدية قامت المذاهب الأدبية واتضحت معالمها وبرزت خصائصها واتجاهاتها وأصبحت هذه المقاييس الفنية تسرى على كل غرض وتطبق على كل موضوع : فى جد أو لهو .. فى زهد أو ترف .. فى زندقة أو إيمان فى شك أو يقين .. فى معبد أو حانة .. فى كوخ أو قصر .. فى بادية أو حاضرة ... ولذا فقد كان مما يشيد به النقاد في مجال التنويع والتفاوت هذا الاقتدار البالغ فى تناول كل موضوع والنفاذ إلى كل غرض .. يقول ابن رشيق " يجب للشاعر أن يكون متصرفاً فى أنواع الشعر من جد وهزل وحلو وجزل وأن لا يكون فى النسيب أبرع منه فى الرثاء ولا فى المديح أنفذ منه فى الهجاء ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ولا فى واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً

(١) رسالة فى البلاغة والخطابة لابن سينا ورقة (١٠) مخطوطة .

فى سائرها فانه متى كان كذلك حكم له بالتقدم وحاز قصب السبق كما حازها بشار بن برد وأبو نواس بعده . (١)

وقد كان للنقد الحديث كلمته في موضوع الأدب وارتباطه بغاية خيرة وأهداف خلقية فحين يؤكد " كروتشه " في كتابه " المجمل فى فلسفة الفن " أن الفن فى حل من كل تمييز أخلاقى .. لا لأنه وهب ميزة التحلل .. بل أنه لا سبيل إلى انطباق التميز الأخلاقى عليه فقد تعبر الصورة عن فعل يحمد أو يذم من الناحية الأخلاقية ولكن الصورة نفسها من حيث هى صورة لا يمكن أن تحمد أو تذم من الناحية الأخلاقية " (٢) نجد زكى مبارك يصرح فى مقدمة كتابه " حب بن أبى ربيعة " أنه يؤثر الأدب المكشوف وأن الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين ورعاية المتحرجين .. وهو يفضل الأدب عارياً متحرراً ويعتبره بذلك معبراً عن المعانى الانسانية على حقيقتها دون غطاء وأن ذلك هو مايجعله أبقى على الدهر " . (٣)

ويقرر عز الدين إسماعيل أن كثيراً من الأحكام يؤكد أن استهداف غاية خيرة فى الشعر كان يحط من قدر الشعر والشاعر لأن العرب لم يجعلوا مهمة الشاعر الوصول إلى الغايات الخيرة وفقدان هذه الغايات فى الشعر لا يمكن عندهم أن يتخذ أساساً للحكم على الشاعر بالرداءة أو التأخر وليس الشاعر مطالباً بأن يكون صادقاً أو يقدم للناس فى شعره مثلاً للصدق فليست هذه مهنته الفنية وإنما مهمته أن يحسن الكلام فحسب ، فإضافة الصدق إلى الشاعر لا تخلق منه شاعراً ممتازاً ولا تكسب شعره قيمة بل ربما تخلفت به فى حين أن الكذب يحسن منه وهذه ولاشك مبالغة فى إقصاء الغايات الأخرى غير الغاية الفنية الصرفة عن ميدان الشعر ... (٤)

---

(١) العمدة جـ٢ صـ ٩٩ .

(٢) المجمل فى فلسفة الفن لبند توكروتشه ترجمة سامى الدروبى صـ ٣٠ .

(٣) حب ابن أبى ربيعة مقدمة الطبعة الثالثة ١٩٢٨ .

(٤) الأسس الجمالية فى النقد العربى صـ ٤٠٠ ومابعدها .

هكذا تتعدد الآراء ، وتختلف وجهات النظر وتثار القضايا وتقام الأدلة وفى ذلك كله اثراء للنقد الأدبى ودعم لمذاهبه واتجاهاته الفنية .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

❊ كذلك كان من الاتجاهات الشائعة في الشعر العباسى الميل إلى البديع والجديد .. وقد كان بشار على رأس مدرسة لها شهرتها بالبديع وتفتيق أكمام المعانى وكان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وبراعة العرض وروعة الأداء من استعارة وتشبيه وجناس وطباق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان التى يقصدونها قصداً ويفتنون فيها افتناناً ويحرصون علي توشية أشعارهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها ... ولم يكن ذلك يصدر منهم عن تكلف وتصنع وإنما كان يصدر عن طبع موات وفطرة صافية واقتدار موهوب .

وقد أثيرت آراء وبحوث قيمة قديماً وحديثاً حول الطبع والصنعة وكانت الأحكام النقدية بحق تعبيراً عن هذه الآراء وصدى لهذه البحوث .. يقول الجاحظ : " فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي يقصد فتأتيه المعانى أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً " [1] ويقول ابن قتيبة " ومن الشعراء المتكلف والمطبوع : فالمتكلف هو الذى قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التنقتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر ... والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى وأراك فى صدر بيته عجزه وفى فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر ... " [2] ويقول ابن رشيق " ومن الشعر مطبوع هو الأصل الذى وضع أولاً وعليه المدار . والمصنوع وإن

(١) البيان والتبيين جـ ٢ صـ ١٥ .
(٢) الشعر والشعراء صـ ٢٣ ، صـ ٣٦ " والزحير : اخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة " .

وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين لكن وقع هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره " . (١)

ويقول القاضى الجرجانى : " إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان .. ولست أفصل فى هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلى والمخضرم والأعرابى والمولد .. " . (٢)

ولأبى اسحق الحصرى رأى فى الطبع والصنعة إذ يقول " والكلام الجيد الطبع مقبول فى السمع قريب المثال بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة يدنو من فهم سامعه كدنوه من وهم صانعه ... والمصنوع مثقف الكعوب معتدل الأنبوب يطرد ماء البديع على جنباته ويجول رونق الحسن فى صفحاته كما يجول السحر فى الطرف الكحيل والأثر فى السيف الصقيل " . (٣)

ويقرر أبو حيان التوحيدى في مقابساته أن الصناعة تحكى الطبيعة وتروم اللحاق بها لانحطاط رتبتها عنها وأن الطبيعة قد احتاجت إلى الصناعة حتى يكون الكمال مستفاداً مأخوذاً من جهتها والغاية مبلوغة بمعونتها واصدارها .. ان الصناعة تستملى من النفس والعقل وتملى على الطبيعة وقد صح أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس تقبل آثارها وتتمثل أمرها وتكمل بكمالها وتعمل على استعمالها وتكتب باملائها وترسم بالقائها ... " (٤)

وهذا الفهم لمعنى الطبع والصنعة يرجع إلى معيار دقيق من تطور القيم الجمالية وارتقاء الأذواق برقى الحياة العامة التى لم تعد تقنع بما كان يكفى فى

---

(١) العمدة جـ ١ صـ ١٠٨ . (٢) الوساطة صـ ١٢ .
(٣) زهر الآداب جـ ٣ صـ ٨٥٩ .
(٤) المقابسات صـ ١٦٣ ، صـ ١٦٤ تحقيق السندوبى .

الماضى ويقنع والتى سايرت فى جملتها تلك المظاهر المعقدة والحياة المركبة فى العصر العباسى .

والمحدثون من النقاد لهم آراؤهم فى الطبع والصنعة كذلك ، فالعقاد يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتكلف فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع وإلا فهو متكلف .[1] ويرى العقاد أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لا فى لسانه فقط " .[2]

ويقرر صاحب الطبع والصنعة في الشعر أن الشعر إذا كان صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة .[3] ويقول " فأينما وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعور فقد وجد هنالك شعر الفطرة " ويرى محمد عبد المنعم خفاجى أن الطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التي توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة . أما الصنعة عنده فهى احساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرفة الأسلوب وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف وهيامه الفنى بصنعته حتى ليطلب الفن للفن ويستلهم الجمال للجمال ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة .[4]

وفى مجال البحث نرى أن " بودلير " الشاعر الفرنسى ١٨٦٧م يندد بمذهب الالهام ويدعو إلى فهم الشعر على أنه صنعة وينادى بأن على الشاعر أن يجمع بين الاحساس والذوق النقدى وأن يُخْضِع الشعر بدلاً من أن يَخْضَع هو له .[5] كما نرى " سبندر " الانجليزى يقرر أن كل شىء فى الشعر إنما هو صنعة وجهد وأنه ليس

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة صـ ٢٧٧ . (٢) مطالعات للعقاد صـ ٢٢٦ .
(٣) الطبع والصنعة فى الشعر لمحمد المهيارى صـ ٧ .
(٤) الآداب العربية فى العصر العباسى الأول صـ ٢٣٩ .
(٥) دراسات فى النقد العربى الحديث ومذاهبه لخفاجى صـ ٨٠ .

للإلهام معنى سوى انبثاق الفكرة الأولى فى ذهن الشاعر ويأتى بعد ذلك البناء والصنعة والعمل . [1] أما بندتوكر وتشيه الايطالى فأنه يرى أن الالهام هو حب الفكرة والهيام بها والمثابرة على طلبها . [2]

ويقرر هوراس أن الأقدمين لمسوا مابين الشعر وما فوق الطبيعة من صلة وأن أفلاطون يذيع على لسان سقراط فى " الايون " أن عامة المحسنين من الشعراء سواء فى ذلك كتاب الملاحم وكتاب الغنائيات لا ينظمون قصائدهم الجميلة علي أنها انتاج فنى بل لأنهم ملهمون تملكهم الشياطين ، وينقل عنه أن الشعراء الغنائيين يفقدون رشدهم عندما ينظمون أناشيدهم الجميلة وحالما يخضعون لسلطان الموسيقى والوزن يوحى إليهم وتمتلكهم الأرواح . [3]

ولذلك كان الشعر ظاهرة لا يستطيعها فى كل الأمم والعصور إلا قليل وقد لا يعرفون سبب امتيازهم فيها ولا أصل قدرتهم عليها ولكنهم ينطقون بهذا الكلام الذى يمتاز على غيره من الكلام بنظام خاص فى تركيبه وحالات غريبة تحيط بالشعراء إذا ألقى إليهم وحى الشعر وهبط عليهم شيطانه . [4]

وبعد فإن القول بالالهام والاعتداد بالطبع فى الشعر مذهب قديم نادى به أفلاطون وكذلك فان الاهتمام بالصنعة مذهب قديم عرفناه لأرسطو الذى كان لا يعتد بجانب الإلهام الغيبى فى الشعر ولا يعتمد فى نقده إلا على الأصول والقواعد الفنية فحسب . [5]

وإذا كان بشار علي رأس مدرسة تهتم بجمال الصنعة ورونق البديع والجديد وتفتيق أكمام المعانى فكذلك كان أبو نواس من أكثر الشعراء الذين جاءوا بعد بشار طلباً للبديع واستخداماً لطرق التصوير .

---

(١) نفس المصدر السابق . (٢) نفسه صـ ٨١ .

(٣) فن الشعر لهوارس ترجمة لويس عوض صـ ٥١ إلى صـ ٥٤ .

(٤) موسيقى الشعر لابراهيم أنيس صـ ٨ – صـ ١١ .

(٥) فى الأدب والنقد لمحمد مندور صـ ٤٤ ، صـ ٥٤ – المدخل إلي النقد الأدبى الحديث لغنيمى هلال صـ٦٤ – صـ ٧١ قواعد النقد الأدبي لاسل أبر كرومبى ترجمة محمد عوض صـ ٦٤ – ١٣٦ .

ولقد حمل أبو نواس كذلك لواء الدعوة إلى نبذ هذه الافتتاحية التقليدية التى لا ترتبط بالواقع ولا تصور حقيقة الحياة العباسية المتحضرة وحقيقة الدعوة النواسية أنها دعوة إلى تطوير الشعر بما يلائم أساليب الحياة وظروفها وبما يتمشى مع طبيعة العصر وما أتيح له من فرص التقدم والازدهار وبسبب هذا الاتجاه أوخذ المحدثون من الشعراء وعيب شعرهم فابن الأعرابى كان لا يعتد بهم ويقول فيما يرويه عنه صاحب الموشح " إنما أشعار هؤلاء المحدثين - مثل أبى نواس وغيره - مثل الريحان يشم يوماً وينوى فيرمى به وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً " . (١)

وهذه نظرة متعصبة بعيدة عن الموضوعية ، وقد رد ابن قتيبة عليها بقوله : " ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين فأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنة كما أن الردىء إذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندناشرف صاحبه ولا تقدمه ... " (٢) .

وإذا كان قد روى عن ابن الأعرابى أنه كان يطعن على أبى نواس ويعيب شعره ويضعه ويستلينه ولا يعتد به ، (٣) فإن كثيراً من رواة اللغة وعتاتها المحافظين كانوا يقبلون على رواية شعر أبى نواس وعلى دراسته وتعليمه وتعلمه .

❄ ❄ ❄ ❄ ❄ ❄ ❄

(١) الموشح صـ ٢٤٦ .
(٢) الشعر والشعراء صـ ٥ ، صـ ٦ .
(٣) زهر الآداب جـ ١ ، صـ ٢٥٤ .

* ومما يتصل بالطبع والصنعة فى الشعر قضية هامة أتيحت لها دراسة موضوعية خصبة قيمة وأعنى بها قضية الاستواء والتفاوت فى الشاعرية وموقف النقاد منها فى القديم والحديث . فقد لوحظ أن كثيراً من فحول الشعراء لا يستقر إنتاجهم الأدبى فى مكانة خاصة محددة من الجودة والامتياز بل يحدث فى كثير من الأحوال أن يرتفع الشاعر بشعره إلى القمة وقد يهبط فى بعض الأحوال إلى الحضيض . وعلى سبيل المثال فقد أخذ على بشار هذا التفاوت فى شعره وكان جوابه تارة " إنما أخاطب كلا بما يفهم " [1] وتارة كان يجيب بقوله " إنما الشاعر كالبحر مرة يقذف صدفة ومرة يقذف جيفة " [2] والأصمعى يقول عن بشار " كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً متعذراً لا كمن يقول البيت ويحككه أياماً وأنه يصلح للجد والهزل " . [3]

وأبو نواس يقول عنه ابن المعتز كان أدب الناس وأعرفهم بكل شعر وكان مطبوعاً لا يستقصى ولا يحلل شعره ولا يقوم عليه ويقوله علي السكر كثيراً فشعره متفاوت لذلك يوجد فيه ما هو فى الثريا جودة وحسناً وقوة وما هو فى الحضيض ضعفاً وركاكة .. [4] ومسلم بن الوليد قيل فيه " إنه خليج صاف ينزع من بحر كدر كزند تورى تارة وتصلد أخرى " . [5]

ويروى صاحب الموشح أن أبا العتاهية كان مع رقة طبعه وقرب متناوله وسهولة نظم المنثور عليه وسرعته إلى مايعجز المتأنى بلوغه لا يخلو من الخطأ الفاحش والقول السخيف " [6] ويروى أن أبا العتاهية مع اقتداره فى قول الشعر وسهولته عليه يكثر عثارة وتصاب سقطاته وكان يلحن فى شعره . [7] وفى " موازنة الآمدى "

---

(١) الأغانى جـ ٣ صـ ١٦٢ وما بعدها .
(٢) مقدمة ديوان بشار جـ١ صـ ٧٥ .
(٣) الأغانى جـ ٣ صـ ١٤٩ .
(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز صـ ١٩٥ .
(٥) مقدمة ديوان أبى نواس للأصفهانى صـ ١١ ط : أصاف .
(٦) الموشح صـ ٢٥٩ .

أن شعر أبى تمام شديد الاختلاف فهو يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً .[1] ويقرر كارل بروكلمان أن أبا تمام كان يشكو موت الشعر .[2] وأبو تمام يقول " مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو فى نفسه فهو وان أحب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر ، [3] وقد أخذ على البحترى أنه مقصر فى باب الهجاء إذ أن ما أثر من هجاء البحترى ليس على مستوى سائر شعره فهو أقل منه قيمة وأدنى منزلة ولا يشاكل طبع البحترى ولا يليق بمذهبه وينبىء بركاكته وغثاثة ألفاظه عن قلة حظه فى الهجاء[4] ... وهكذا . وكان الأصمعى يستحسن هذا التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، [5] ويرى العقاد أن التفاوت فى الشاعرية دليل عبقرية الشاعر وطبعه .[6] ويرى المرصفى أن شعر الشاعر لا يكون دائماً بمنزلة واحدة فقد يجود وقد يسف فلا ينبغى الاغترار بشهرة المشهور وإنما الذى ينبغى دائماً هو الاحتكام للقوانين التى بمخالفتها وموافقتها يرد القول ويجود " .[7]

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

❊ وكان لمسلم بن الوليد دوره فى إثارة النقاد وتحريك جملة من القضايا واصدار كثير من الأحكام النقدية .. وكلها ترتبط بمذهب البديع وأثره فى الشعر العربى .. ولم يكن مسلم بن الوليد أول من قال البديع ولكنه كان أول من أفرط فيه وغلا وتكلف وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها .. وإننا لنجد كثيراً من النقاد القدامى لا يستسيغون تكلفه البديع فى بعض شعره ويعتبرون ذلك منه افساداً للشعر ، فالآمدى يقول عنه " أنه أول من أفسد الشعر بالبديع "[8] وأبو حاتم السجستانى يرى أنه

---

(١) الموازنة صـ ١٥ .
(٢) تاريخ الأدب العربي جـ ٢ صـ ٧٦ .
(٣) الأغانى جـ ١٥ صـ ٢٢٨ ط : بيروت .
(٤) أغانى ساسى صـ ١٨ ، صـ ١٦٧ .
(٥) الآداب العربية في العصر العباسى الأول لخفاجى صـ ٢٤٠ .
(٦) المرجع السابق . (٧) الوسيلة الأدبية جـ ٢ صـ ٤٦٣ .
(٨) الموازنة صـ ٨ .

" خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند تورى تارة وتصلد تارة أخرى " [1] ويروى أبو الفرج فى نسخة مخطوطة من كتابه الأغانى أن " أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائى بعده فجن فيه فتحير الناس " [2] ومع ذلك فقد كان هناك من يقدره ويشيد بشعره ، فابن قتيبة يقرر أنه كان مداحاً محسناً . [3] ويروى أبو الفرج أنه كان شاعراً حسن النمط جيد القول فى الشراب وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى . [4] وقد كانت المقارنة تعقد بينه وبين أبى نواس فيعلو قدر أبى نواس عليه ، وفى ذلك يقول ابن رشيق : " كان مسلم نظير أبى نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبض كان فى مسلم واظهار توقر وتصنع وكان صاحب روية وفكرة لا يبتده ولا يرتجل " [5] وفى الصناعتين " أن أبا نواس أشعر من مسلم لتصرفه فى أشياء من وجوه الشعر " [6] ونقل صاحب العمدة أن البحترى يفضل أبا نواس على مسلم لأن أبا نواس يتصرف فى كل طريق ويبتدع فى كل مذهب ان شاء جد وان شاء هزل ومسلم يلزم طريقاً لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطاه " [7] ويروى العباس عن عبد الصمد بن المعذل قوله : " والله ماجرى أبو نواس قط فى ميدان مسلم ولا تسمو نفسه إلى أن يفاضل بينهما إلا أن له حظاً من الشهرة والذكر ليس لمسلم مثله . [8]

وقد كانت المقارنة تعقد كذلك بينه وبين شاعر آخر يمثل جانب الشعبية والسهولة ويسر الأداء فى الشعر العربى وهو أبو العتاهية وقد روى أن مسلماً اجتمع بأبى العتاهية فقال له : والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

---

(١) مقدمة الأصفهانى لديوان أبى نواس صـ ١١ ط : أصاف .
(٢) الأغانى ١٧ صـ ٣٨ ، صـ ٣٩ مخطوطة .
(٣) الشعر والشعراء جـ ٢ صـ ٨٠٨ .
(٤) الأغانى جـ ١٧ صـ ٣٨ مخطوطة .
(٥) العمدة جـ ١ صـ ١٦٦ . (٦) الصناعتين صـ ١٧ .
(٧) العمدة جـ ٢ صـ ٩٩ .
(٨) معاهد التنصيص صـ ٢٦١ .

الحمد والنعمة لك ... والملك لا شريك لك ... لبيك إن الملك لك

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ولكنى أقول :

موف على مُهَج فى يوم ذى رهج ∴ كأنه أجل يسعى إلى أمل [1]

وأبو العتاهية من أصحاب الطبع المفطورين على السهولة ويسر الأداء المنصرفين عن التكلف ومشقة التعقيد ...

وبمعيار النقد الحديث لا يعتبر مسلم بن الوليد صاحب مدرسة تجديد أو صانع بديع وجديد إذ أنه لم يخترع بديعاً ولم يبتكر جديداً وإنما كان فى أفكاره ومعانيه يستمد من سابقيه ومعاصريه وهو ينزع فى بنائه الفنى وأصول تعبيره وضروب تصويره إلى نبع عربى مألوف ونهج تقليدى معروف مع تكلف واضح مكشوف وقد قاده ميله إلى تجويد المعنى والعناية بالمبنى إلى الافراط فى الصنعة اللفظية إلى حد تشويه جمال الصورة التى أراد بها ابراز معانيه والتعبير عن أفكاره وبذلك لم يبلغ مسلم معاصريه من الشعراء فى أسلوبهم الشعرى الذى تبسط حتى اقترب من الشعبية وفى صورهم التي ارتفعوا بها عن مجرد الزركشة اللفظية الفارغة . [2]

أما أبو تمام فقد أثار ضجة فنية كبرى فى مجال الأدب والنقد بصناعته الشعرية ووشيه وتصويره وابتكاره ألواناً من الأفكار والمعانى والصور الجديدة ومزجه ذلك كله بالفلسفة والمنطق وأنماط العامة مما أشاع فى شعره غموضاً وخفاء وأحدث فى أسلوبه تعقيداً والتواء وبذلك كان أبو تمام البداية المنظمة في فن الصناعة والزخرفة بعد حركة البديع والجديد التي قادها وأرسى دعائمها بشار زعيم المجددين وأستاذ المحدثين .. لقد كان شعر أبى تمام يمثل بحق مدرسة فنية كبرى لها خصائصها وسماتها وتأثيرها الفعال في الشعر العربي بلا جدال . وقد انقسم

(١) أغانى دار الكتب جـ ٤ صـ ٢٧ .
(٢) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى صـ ٥٩٠ .

الناس حول شعره وثارت حوله ضجة وألفت كتب وعقدت موازنات وظهرت بحوث عديدة حول المعانى والألفاظ والبديع والتصوير واليسر والوضوح والغموض والخفاء والسرقات الشعرية والتلفيق والتحوير نرى ذلك بوضوح فى مؤلفات : ابن المعتز والصولى والآمدى وقدامة والجرجانى وابن رشيق والمرزوقى وغيرهم ، ومازالت تلك القضايا من أهم الدعائم والأسس فى النقد العربى الحديث ، والبحوث فيها بحوث خصبة تمتاز بالحيوية والعمق والأصالة وصحة النظر وسلامة الذوق وسداد الرأى .

وشاء القدر أن يعاصره البحتري وهو قريب المعنى حسن الأسلوب لا يغرب إغراب أبي تمام ولا يبعد عن عمود الشعر بعد أبى تمام مع مايمتاز به شعره من ديباجة مشرقة وسبك محكم فساعد وجود البحترى على انقسام الأدباء والعلماء وخلف هذا الانقسام ثروة جيدة من النقد الأدبى لم يظفر بمثلها فى عصر من العصور . وكانت هناك آراء للأنصار والخصوم وكانت هناك اتجاهات ووجهات نظر وكانت هناك كتب تؤلف وبحوث تعرض كالموازنة بين أبي تمام والبحتري والآمدى" وأخبار أبى تمام للصولى " و " سرقات أبى تمام لابن أبى طاهر " و " سرقات البحترى من أبى تمام لبشر بن تميم " و " المشكل والانتصار " للمرزوقى .

كانت المدرسة التمامية خير ما يمثل نزعة التصوير والتلوين العقلى والفلسفى في الشعر العربى وقد تصدى النقاد لأبى تمام ومدرسته الأدبية وثارت الخصومة من حوله واتهم بالخروج علي عمود الشعرالعربى وسنته المتبعة ورأينا ناقداً كالآمدى يقول عنه " إنه ضل طريق الصواب إذ العرب جرت علي أن تستعير المعنى مما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من أسبابه ..." (١) .

أما الراغب الأصفهانى فانه يقف موقفاً معتدلاً ويقرر أن الأمر يرجع إلى الذوق الخاص فيقول : " مذاهب الناس في ذلك مختلفة فمنهم من يميل إلى ما سهل فيقول خير الشعر ما لا يحجبه شيء عن الفهم . وقال آخر خير الشعر ما معناه إلى

(١) الموازنة صـ ٢١٣ .

قلبك أسرع من لفظه إلى سمعك . ومن يقول ما كان مطابقاً للصدق وموافقاً للوصف . ومنهم من يميل إلى ماانغلق معناه وصعب استخراجه كشعر ابن مقبل والفرزدق " [1] .

وكان علي النقد الحديث أن يدلى برأيه في هذه الخصومة ، وأن يبين بوضوح أن أبا تمام حين جاء بمذهبه الجديد كان مؤسساً لمدرسة فنية كبرى في الشعرالعربى وأنه لم يهدم المذهب القديم بل أنه أخذ يزاوج بين القديم وجديده ويبرز القديم فى قوالب جديدة من الفكر والفلسفة والمنطق وبراعة التعبير وروعة التصوير وهو بذلك لم يكن سلبياً يهدم وإنما كان إيجابياً يبنى ويبتكر ويبدع .

والشاعر حين يلجأ إلى التصوير البيانى يعرض أمامنا أفكاراً جديدة ، فوجوه البلاغة المختلفة هى من وسائل الايحاء بالحقيقة عن طريق الخيال فالخيال فيها سبيل جلاء الحقيقة والبرهنة عليها علي نحو ما ، وكان من أسباب عناية نقاد العرب بالبيان والبديع مادار من جدل حول أدب المحدثين والقدماء إذ أن هذه الفنون قد كثرت فى أدب المحدثين من أمثال بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد وقد حفل بها وتكلفها أبو تمام حتى كان شعره مثار الخصومة بين أنصار القدماء وأنصار المحدثين .

وقد تناول النقاد الوجوه البلاغية عن طريق الاستقراء والتتبع لكلام العرب يؤازرهم فى ذلك طبع مصقول بالدراية والخبرة وقد تعرض كثير منهم لهذه الوجوه البلاغية على أساس جلاء الروعة الفنية عن طريق الموازنة بين المعانى وتقسيم وجوه الحسن والجودة فى الفنون البلاغية وبيان جهة الأصالة وأهداف البيان فى الكشف عن المعانى والأفكار وتمثيلها ولعل أهم نقطة فى هذه القضية هى مايتصل بالخلق الفنى والقدرة على الابتكار فى صور الخيال الأمر الذي تعرضت بسببه حركات التجديد فى الأدب العربى ونقده لكثير من مظاهر الخصومة والصراع فقد كان كثير

(١) محاضرات الأدباء جـ ١ صـ ٥٥ وما بعدها ط : المويلحى .

من الشعراء والنقاد يسيرون على نهج السابقين فى تعبيرهم وتصويرهم وأساليبهم ويرفضون كل خيال جديد وتعبير مبتكر لم يرد عن طريق القدماء وكان الاعتقاد السائد أن الجاهليين والعرب والأعراب خير من المولدين والمحدثين أهل الأمصار مع أنه قد ينبغ من بين المحدثين من يسمو بمنزلته علي القدماء .. ويقول الجاحظ : " والقضية التى لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والناشئة (الطارئين) وليس ذلك بواجب لهم فى كل ما قالوه وقد رأيت ناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلا فى رأى للشعر غير بصير بجوهر مايروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان ."[1] وقد رأينا الآمدى فى موازنته والجرجانى فى وساطته يسويان بين القدماء والمحدثين إنصافاً للجيد منهما بجيده واعترافاً بالخطأ والقصور لدى من يخطىء ويقصر . بل إن ابن الأثير قد فضل المحدثين على القدماء .[2] ولا بن قتيبة رأى سديد في هذه القضية إذ يقول " ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل للفريقين وأعطيت كلا حقه . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم " .[3]

وقد سلك بعض النقاد مسلكاً موضوعيا فاستحدثوا مقاييس عامة لجودة الأخيلة الشعرية وبحث القوانين العامة فى الأخيلة والصور ولو قدر لهذه الدراسات النمو والاكتمال والاستمرار لكان لها شأنها وخطرها فى المجالات الأدبية والنقدية .

لقد كانت هناك دراسات قيمة حول الحقيقة والمجاز والدلالات وفصاحة الكلمة وفصاحة الكلام ومطابقته لمقتضى الحال وأسرار بلاغة الأسلوب وجمال التعبير

---

(١) الحيوان جـ ٣ صـ ١٣٠ .
(٢) الاستدراك لضياء الدين بن الأثير صـ ٢٤ ط : القاهرة ١٩٥٨ .
(٣) الشعر والشعراء صـ ٢ .

وحسن الاستعارة وروعة التشبيه وقوة الكناية ووجوه البديع والإيحاء والملاءمة بين اللفظ والمعنى والتصوير والخيال والعاطفة والانفعال والأوزان والقوافي وضرورات الشعر . ونذكر على سبيل المثال ما أورده صاحب الطراز في الجزء الأول صـ ٢٤١ ، صـ ٢٤٢ : " كل استعارة لا مناسبة فيها بين الطرفين رديئة غيرمقبولة كقول أبي نواس : ـ

بح صوت المال مما ∴ منك يشكو ويصيح

مراده أن المال يتظلم من اهانته له بالتمزيق بالاعطاء فالمعنى جيد ولكن الاستعارة قبيحة نازلة لأنه لا صلة بين المال والإنسان .

وأضعف استعارة من البيت السابق قوله : ـ

ما لرجل المال أضحت ∴ تشتكي منك الكلالا

ومن ضعيف الاستعارة قول أبي تمام : ـ

بلوناك أما كعب عرضك في العلا ∴ فعال وأما خد مالك أسفل

مراده عرضك مصون ومالك مبتذل لكنه أخرجه أقبح مخرج ... " ولا شك أن مثل هذه الآراء والأحكام تثير كثيراً من القضايا والبحوث النقدية والبلاغية وتتيح فرصاً مواتية لآراء أكثر نضجاً وأحكام أعظم دقة وصواباً .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

❊ ومن أهم ماتركته المدرسة التمامية من أثر في الدراسات النقدية والبلاغية تلك المزاوجة بين المعاني والأفكار والصياغة والأسلوب والتصوير والتطبيق والتجنيس فجمعت بذلك بين شرف المعنى وجودة الصياغة وقوة الأسلوب وروعة التصوير والبراعة في استخدام البديع .

وقد أثيرت في النقد العربي قضية هامة تتعلق باللفظ والمعنى ومدى أهمية كل

منهما . وحول هذه القضية تعددت آراء النقاد العرب : فمنهم من نظر إلى مقومات العمل الأدبى فرجعها إلى جانب المعنى وأغفل شأن اللفظ واعتبر أن حسن المعنى وجودته هو الأساس ولا يبالى برونق العبارة وجمال الصياغة .. وهناك من ينزل الألفاظ فى الأهمية منزلة تلى منزلة المعنى فالألفاظ عندهم كالمعارض أو الثياب للجارية الحسناء التى تزداد حسناً فى بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذى أبرز فيه وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه " [1] وهناك آخرون يرون أن الصياغة هى الأساس الذي يعتمد وهى المقوم الحق للأدب وكأنهم رأوا أن المعانى متداولة مطروقة وأنها لا تظهر لها قيمة إلا فى إطار من الصياغة الجيدة والأسلوب الجمالى المعبر فقيمة الصياغة والألفاظ عندهم فوق قيمة المعانى وفى ذلك يقول الجاحظ : " والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير " . [2] ويقول صاحب الصناعتين : " المعانى مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجيد للسوقى والنبطي والزنجى وإنما يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها " [3] أما ابن خلدون فأنه يرى أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . [4] والمعانى عند هؤلاء مادة الشعر والشعر فيها كالصورة ولا ينبغى الحكم على الشعر بمادته أى بمعناه وإنما الحكم عليه بصورته ، وبذلك يقول قدامة ، وابن خلدون يرى أن العبرة بالألفاظ وأن المعانى تبع لها وهى أصل وكأن الألفاظ عنده هى مقياس براعة الأديب ومن هنا برز الاهتمام بالصياغة وخصائصها فى الدراسات النقدية وأصبحت هى الأساس .. وهكذا عنى البلاغيون بحسن اللفظ وجودة السبك ورأى كثير من الأدباء والنقاد أن المجال الأكبر للتجديد فى الحلية اللفظية اعتقاداً منهم بأن الأولين استغرقوا المعانى

---

(١) عيار الشعر صـ ٨ .
(٢) الحيوان جـ٣ صـ١٣١ ، صـ١٣٢ .
(٣) الصناعتين صـ ١٨٦ . (٤) المقدمة صـ ٤٢٥ .

أو أتوا علي معظمها ومجالات الابداع والاغراب والتجديد عند المحدثين تتمثل فيما تركه القدماء وأهملوه ولم يعتنوا به . [1]

ومن النقاد من كانوا يسوون بين اللفظ والمعنى فخير الشعر عندهم ما حسن لفظه وجاد معناه فإذا قصر اللفظ عن المعنى أو حلا اللفظ ولم يكن وراءه طائل كان الكلام معيباً . [2] ومن رام معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . [3] وعلى أى حال فان من يعتدون بجانب اللفظ من النقاد لا يمكنهم أن يغفلوا جانب المعنى وأهميته .. فالجاحظ الذى يعتد بجانب اللفظ ويعتد بجانب التصوير والصياغة يرى أن أهمية الألفاظ من حيث أدائها للمعانى ويقرر ضرورة المشاكلة بين الألفاظ والمعانى فيقول " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح فى موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال " [4] والإمام عبد القاهر الجرجانى عارض بقوة رأى من يقفون عند حدود المعنى ويغفلون شأن الصياغة فى تقويم الأعمال الأدبية ، كذلك لم يقنع الإمام عبد القاهر بالوقوف عند حدود الألفاظ من حيث هى ألفاظ إنما من حيث هى وسائل لتكوين الصور الأدبية وتصوير المعانى المدلول عليها بالصياغة .. يقول عبد القاهر الجرجانى : " واعلم أن الداء الدوى والذى أعيا أمره فى هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل من المعنى " ثم يقرر أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشىء الذى يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار فكما أن محالاً إذا أنت أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه " [5] كذلك

---

(١) الوساطة صـ ٢٠٨ . (٢) الشعر والشعراء صـ ٣ ، صـ ٤ .
(٣) البيان والتبيين جـ ١ صـ ١٣٤ . (٤) الحيوان جـ ٣ صـ ٣٩ .
(٥) دلائل الاعجاز صـ ١٣٦ ، صـ ١٣٨ ط : الفتوح .

فالألفاظ عنده لا جمال فيها إلا بحيث اعتبار مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ولا جمال فى اللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق وإنما يكون ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب " [1] .. إذن فالأهمية للألفاظ فى مواقعها من الجمل ولا أهمية لها فى ذاتها وإنما تظهر أهمية الألفاظ فى أداء المعانى ويتجلى ذلك فى تأليف الكلام وصياغته .. ومن هذا المنطلق نشأت نظرية النظم عند عبد القاهر ويعرفه عبد القاهر بأنه وضع الكلام الوضع الذى يقتضيه علم النحو وعلم المعانى من الوصل والفصل والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والذكر والحذف والاظهار والاضمار وكثير من المحسنات البيانية والبديعية التى تضيف إلى المعنى الكثير .

ولعبد القاهر فى هذه القضية بحوث أصيلة جديرة بالاهتمام والتقدير . وقد أثبتت الدراسات النقدية والجمالية الحديثة أصالة هذه الآراء التى نادى بها عبد القاهر وأكدت صحتها ودقتها وما تمتاز به من أعماق وأبعاد .

ففى مجال اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون رأينا باحثاً كجورج سانتيانا يقرر فى كتابه " الإحساس بالجمال " أن التأثير الرئيسى للغة يتألف من المعنى أى ما تعبر عنه من أفكار إلا أن التعبير مستحيل بدون العرض ولابد للعرض أن يكون له شكل ما وهذا الشكل الذى نأخذه وسيلة للتعبير هو ذاته أحد العناصر التي يتألف منها تأثير اللغة . [2] ويرى أنه ليس من السهل رد جمال الشكل إلى جمال العناصر التى يتألف منها وإلا يحق للعامة أن يعتقدوا أن جميع المنازل المبنية بالرخام تكون متكافئة فى جمالها . [3]

ومدرسة أبى تمام تمثل ركناً خطراً في هذه القضية بالاضافة إلي غيرها من المدارس التى يتمثل فيها التأنق فى الصياغة واستخدام البديع أو تلك التى يتمثل فيها الاهتمام بالمعانى ولو فى معرض من الكلام مبتذل سخيف ... لقد كانت مدرسة

(١) نفسه صـ ٣١ .
(٢) الاحساس بالجمال صـ ١٨٩ .
٣) نفسه صـ ١٠٧.

أبى تمام بحق مدرسة المعانى ودقة الأفكار الممتزجة بالفلسفة والمنطق ، كما أنها كانت كذلك مدرسة الصياغة وبراعة الأسلوب وروعة التصوير وجودة التطبيق والتجنيس ، ولقد استطاع أبو تمام أن يمزج بين هذه العناصر المتعددة ببراعة وفن واقتدار وكان له من ذلك قصائد رائعة تطرب لها العقول قبل أن تستثار المشاعر والأحاسيس ويلتذ الفكر قبل أن يستمتع القلب وينشط الوجدان .

لقد جاء شعر أبى تمام على غير ما ألف القوم عميق المعانى ممتد الأبعاد محلقاً فى شتى الآفاق مغرباً في الاستعارات والمجازات مبدعاً في التصوير والتجسيم والتشخيص والرمز والايحاء متعلقاً أشد التعلق شغوفاً كل الشغف باستخدام ألوان الطباق والجناس بدقة وعمق وبراعة واقتدار فتعثرت بشعره أفهام وضاق به خصوم وتصدى للدفاع عنه أنصار وكثر فى شعره التأويل والتخريج وزاد فيه التصحيف والتحريف وتشابه كثير من رواياته وثارت ضجة كبرى حول شعره واشتدت الخصومة فيه بين متعصب له ومتعصب عليه وكان لهذه الخصومة أثرها فى تناول شعره بالشرح والتفسير والنقد والتحليل والكشف عن ملامحه وتجلية أسراره وخفاياه وبيان خصائصه ومزاياه فكان من ذلك فيض زاخر من الشروح الكثيرة لشعره ، والكتب النفيسة فى نقده ، كما كانت هناك أهمية خاصة لتحقيق النصوص الشعرية ودراسة ما يحل بها من تصحيف وتحريف والكشف عن حقيقة الكلمة والتأكد من سلامتها ، وقد ألفت كتب كثيرة فى هذا الباب .

ونتيجة لاصطراع الرأى واحتدام الخصومة بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى بين المؤيدين لمذهب واتجاه والمعارضين لهذا المذهب والاتجاه .. بين أنصار أبى تمام الذين يرون أنه أتى بكل طريف وجديد ، وخصومه الذين يرون أنه لم يأت ببديع ولا جديد ، وأن صنعته إنما هى غموض وتعقيد ... أقول : نتيجة لذلك كله ظهر فى النقد العربى بحث خطير حول السرقات الشعرية وما يرتبط بها من نقل وقلب وتحوير ..

يقول الجرجاني في وساطته : [1] " السرقة داء قديم وعيب عتيق ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه وكان أكثرها ظاهراً ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المناهج والترتيب " ثم نراه يلتمس العذر لأهل عصره في هذا الباب فيقول معللاً : " لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها وإنما نحصل على بقايا إما أن تكون قد تركت رغبة عنها أو استهانة بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيتاً يحسبه فرداً مخترعاً ثم تصفح عنه الدواوين لم يخط أن يجده بعينه أو يجد له مثالاً يفض من حسنه . [2] ويقول الجاحظ : " نظرنا في الشعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض " [3] ويقول أيضاً " ولا يعلم في الأرض شاعر متقدم في تشبيه مصيب تام أو في معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل فن جاء من الشعراء من بعده إن هو لم يقدر على لفظه فيسرقه أو يدعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه " . [4]

ويرى الشريف المرتضى أنه لا ينبغي لمصنف أن يقول هذا البيت مسروق المعنى من فلان لأنه قاطع على ما لا يأمن هذا أن يكون كذباً فربما تواردا فيه من غير قصد ، والأولى أن يقال هذا نظيره وشبيهه " [5] فأما أخذه وسرقه فما لا سبيل إلى العلم به لأنهما قد يتواردان علي ماذكرناه ولم يسمع أحدهما بكلام الآخر وربما سمعه فنسيه وذهب عنه ثم اتفق له مثله من غير قصد . [6] واتسعت الدراسات وتعددت حول السرقات الشعرية وفتحت مجالاً للدراسات النقدية والأدبية والبلاغية

---

(١) الوساطة صـ ١٥٨ ط : صبيح ١٩٤٨م .
(٢) نفسه صـ ١٥٩ .
(٣) معاهد التنصيص جـ٢ صـ ١٣٢ .
(٤) الحيوان جـ ٣ صـ ٩٦
(٥) طيف الخيال للشريف المرتضى صـ ١٤١ .
(٦) الشهاب في الشيب والشباب للشريف المرتضى صـ ٧ .

وكانت مجالاً خصباً ازدهرت فيه آراء قيمة وتبلورت اتجاهات أصيلة كل الأصالة ، عميقة غاية العمق ، كما يظهر ذلك بوضوح في " الصناعتين " لأبى هلال العسكرى والوساطة للجرجانى والموازنة للآمدى وسرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت وسرقات أبى تمام لابن طاهر وابن عمار فى كتابين .

وقد ألف ابن المعتز رسالة فى مساوىء أبى تمام يشن عليه فيها هجوماً عنيفاً ويعيب عليه بعده في التفكير وإغراقه في التصوير . [1] وقد كان لهذه الرسالة أثرها فى احتدام الحملة على أبى تمام وتركيز الهجوم على مدرسته .

وإذا كان أبو تمام قد أثار كل هذه الضجة حول شعره وأذكى خصومة قوية بمذهبه الشعرى الجديد فإنه كان معجباً بفنه مقدراً له يعرف قيمته وأصالته فقد كان لأبى تمام نظر ثاقب وبصيرة مدركة واعية وذوق مرهف فى مجال النقد ووزن الشعر وتقدير الكلام ، وله وصية مشهورة أوصى بها البحترى وضمنها كثيراً من آرائه الدقيقة ونظراته الصائبة ونقده الأصيل . [2]

* * * * * * *

* ولأبى تمام شهرة بجودة الابتداء وفخامته وحسن التخلص من الافتتاحية والمطلع إلى موضوع قصيدته ومراعاة الارتباط والتلاحم بين أجزاء القصيدة وتسلسلها فكرياً وائتلافها شعورياً فى إطار من الألفاظ المحكمة والصياغة البارعة وهذا يعنى بوضوح تحقق " الوحدة الفنية للقصيدة " تلك الوحدة التى عبر عنها الحاتمى بقوله " مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة

(١) الموشح صـ ٣٠٧ .
(٢) زهر الآداب جـ ١ صـ ١٢٠ ، صـ ١٢١ .

الاحسان حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغية والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا رسمه ". (١)

والحاتمى بهذا الرأى يثير قضية هامة من القضايا النقدية تتعلق بالوحدة العضوية كمقوم من المقومات الفنية للقصيدة الشعرية ويثبت بطلان الادعاء بعدم تحققها في الشعر العربى إلا فى العصر الحديث وهذا ادعاء مرفوض وحكم مردود .

ومن العجيب الرائع أن هذه الاتجاهات الجديدة في شعر أبى تمام كان لها ما يدعمها ويؤيدها فى النقد الحديث والأسس الجمالية فى الأدب المعاصر فالدقة والخفاء ، والرمز والإيحاء ، والتشخيص والتجسيم وتراسل الحواس وتغطية مناطق الشعور وامتزاج الأفكار والمعانى بالمشاعر والأحاسيس وخطورة الأسلوب المسطح وأسلوب الذاكرة والتعابير المحفوظة .. تلك كلها دراسات نقدية قيمة تكشف بوضوح عن أصالة شاعرنا المبدع أبى تمام الطائى وتؤكد أن أبواب الرمزية والتأملات النفسية والفلسفية والتصوير الايحائى والدلالات الشعورية لم تنبت شيطانياً فى أرض جدبة وإنما خصبت وأزهرت فى أرض طيبة وبفعل بذور قوية فعالة قد أتت أكلها فيما توالى من عصور .

وكانت الموازنة تعقد دائماً بين أبى تمام والبحترى وقالوا فى ذلك إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى ، فقد اجتمع للبحترى من الفصاحة والموهبة وقوة الطبع وخصوبة الخيال وعذوبة الموسيقى وإحكام النسج وسلاسة الأسلوب وبراعة المشاكلة بين اللفظ والمعنى وروعة التصوير وحسن التصرف ما جعله فى الطليعة بين شعراء العربية وكان شعره تبعاً لذلك محط الأنظار ومجال البحث والدراسة والموازنة وقد بهر بشعره الأدباء والنقاد والباحثين فترجموا لشخصيته وأرخوا لأدبه وجمعوا

(١) زهر الآداب جـ ٢ صـ ٦١٥ .

شعره وشرحوه ، ودرسوه ، ونقدوه ووازنوا بينه وبين شعر غيره ، وتعرضوا لجيده فأشادوا به ، ولرديئه فنبهوا عليه وكانت لهم نظرات صائبة فى الكشف عن مواطن البراعة والروعة فيه ، فتراهم يقررون أنه : " لو لم يكن للبحترى إلا قصيدته السينية فى وصف إيوان كسرى فليس للعرب سينية مثلها ، وقصيدته فى البركة " ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها " واعتذاراته فى قصائده الى الفتح التى ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها ، وقصيدته فى دينار بن عبد الله التى وصف فيها مالم يصفه أحد قبله وأولها " ألم ترتغليس الربيع المبكر " ووصف حرب المراكب والبحر لكان أشعر الناس فى زمانه فكيف إذا أضيف إلى هذا صفاء روحه ورقة تشبيهه " . وقالوا " [1] إن أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء فأدرك بذلك بعد المرام مع قربه إلى الأفهام .. " . [2]

والبحترى خير من يلائم ويشاكل بين اللفظ والمعنى ويطبق ذلك على نماذجه تطبيقاً دقيقاً فهو بحق خير من يتخير اللفظ للمعنى ويناسب بين المعنى وموسيقى الوزن والقافية ويؤلف بين الألفاظ بعضها وبعض ويراعى وحدتها مع النغم المتمثل فى الوزن والقافية ، وقد رأينا قدامة بن جعفر م ٣٣٧ هـ فى كتابه " نقد الشعر " يقرر أن عناصر الشعر أربعة : اللفظ والوزن والقافية والمعنى وبامتزاج هذه العناصر تتكون ائتلافات أربعة : ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف اللفظ مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف المعنى مع القافية . [3]

لقد ترك البحترى من نماذجه الشعرية مايبهر ويعجب ويثير حماس الباحث المنقب ليتأمل ويتروى ويتذوق ويسبر أغوار النفس ويتسرب إلى أعماقها متتبعاً أدق الانفعالات التى كان يعبر عنها البحترى بريشة رسام وقيثارة عازف فنان .

---

(١) ديوان المعانى جـ ١ صـ ٢١٨ جـ ٢ صـ ٦٤ ، رسائل ابن المعتز ٣٣ .
(٢) شذرات الذهب جـ ٢ صـ ٧٢ .
(٣) قدامة بن جعفر والنقد الأدبى لطبانة صـ ١٣٣ . نشر الأنجلو المصرية .

وكانت الخصومة الأدبية عنيفة بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى وكان من ثمرة ذلك - كما ذكرت - كتب نقدية علي جانب كبير من الأهمية ، وقد أثارت هذه الخصومات كثيراً من الآراء القيمة والبحوث الفنية الوافية فى مجالات البلاغة والنقد الأمر الذى مهد لهذه الحركة النقدية الكبرى فى القرن الرابع الهجرى .

وكانت هذه المؤلفات النقدية كذلك أثراً من آثار تطور الشعر في العصر العباسى وظهور المدارس الأدبية المختلفة واحتدام الخصومة حولها ، وكان لزاماً على النقاد أن يتنالوا بالبحث قضية هامة من قضايا النقد تتصل بعمود الشعر العربى والالتزام به أو الخروج عليه .. يقول المرزوقى " الواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ولتعرف مواطىء أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم إقدام المزيفين على مازيفوه ويعلم أيضاً فرق مابين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتى السمح على الأبى الصعب " [1] ويوضح المرزوقى ذلك بقوله " إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة فى الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات والمقاربة فى التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه المستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما - فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ولكل باب منها عيار " [2] وأخذ المرزوقى يوضح هذا العيار ويفصل القول فيه إلى أن قال : " فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المقدم ، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن " [3] والنقاد العرب يحكمون على أبى تمام بأنه فارق هذا العمود فى كثير من

---

(١) مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقى صـ ٨ ، صـ ٩ ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر . تحقيق أحمد أمين - عبد السلام هارون .

(٢) نفسه صـ ٩ . (٣) نفسه صـ ١١ .

شعره الذى كان يعنى فيه بالزخارف اللفظية ويلتزم بأصول الصنعة والصياغة الفنية ويغوص على المعانى غوصاً ويقتسرها اقتساراً ويستخرج منها كل غريب ونادر . ويحكمون علي البحترى بأنه ملتزم بعمود الشعر موافق له لم يفارقه ولم يخرج عليه وكانت له بذلك منزلته ومكانته لدى هؤلاء النقاد .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

❊ لقد كان تأثير أبى تمام ومدرسته على الشعر والشعراء قوياً فعالاً فقد ترك أبو تمام طابعه على الشعر من بعده واحتذاه وقلده كثير من الشعراء ومن بينهم ابن الرومى الذى كان يلتزم بأصول كثيرة من خصائص المدرسة التمامية إلا أنه لم يبلغ بها المدى الذى بلغه أبو تمام ولم يسر فيه ذلك التيار التمامى الذى يكسب الشعر أعماقاً وأبعاداً ويشيع فيه ظلالاً من الرمز والخفاء ويمنحه جزالة الألفاظ ومتانة الأداء ... نعم .. كان ابن الرومى صاحب إبداع وتجديد يسلك سبل المبدعين ويمضى مع المجددين فى وسائلهم وأساليبهم لكنه كان فى إبداعه وتجديده يحتذى بمثال وينسج علي منوال ... وكان شعر ابن الرومى مجال بحث ودراسة من جماعة النقاد الذين اختلفوا فى تقدير مكانته وتحديد منزلته الأدبية اختلافاً كبيراً فقد أهمله بعضهم ولم يجعل لشعره قيمة ورأى آخرون أنه أولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه . [1] يقول القاضى الجرجانى : " وقد نجد كثيراً ينتحل تفضيل ابن الرومى ويغلو فى تقديمه ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره وهى قد تناهز المائة أو تزيد فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ثم قد تنسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها جارية على رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى وانتظار الفراغ منها " . [2] ويروى المسعودى أنه " كان من مختلفى معانى الشعر والمجودين في القصير والطويل وكان الشعر أقل أدواته " . [3]

---

(١) العمدة جـ ١ صـ ٢٥٥ .
(٢) الوساطة صـ ٤٢ .
(٣) مروج الذهب جـ ٤ صـ ٢١٤ .

ويقرر أبو العلاء في رسالة الغفران أن " ابن الرومي أحد من يقال أن أدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة " . [1]

أما النقاد في العصر الحديث فقد كانوا أكثر تفهماً لطبيعة شخصيته وأوفى تقديراً لفنه وشاعريته .. يقول المازني " فما نعرف رجلاً أصابه ما أصاب ابن الرومي ولا شاعراً تهاون به الناس حياً وميتاً وتناسوا مايجب له إلا هو " [2] ويقول " وقل من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومي في دقة احساسه بالجمال في جميع مظاهره وأشكاله " [3] ويقول العقاد : " ابن الرومي واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب " . [4] ويقول " فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه والشاعر في جيده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه وليس الشعر عنده لباساً يلبسه للزينة في مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال في عامة الأيام ... كلا .. بل هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه فللرديء منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه والإبانة عن صحته وسقمه " [5] ويرى شوقي ضيف أن ابن الرومي خير من يمثل نزعة التصوير في الشعرالعربي وأنه خلف أبا تمام فزاد في الطنبور نغمات وملأ شعره بالأشباح والخيالات " [6] ولنجيب البهبيتي رأيه في ابن الرومي إذ يقول " ولم يكن ابن الرومي شيئاً كبيراً بالقياس إلى الخالقين من السادة الذين تركوا علي الشعر العربي أثراً باقياً ذلك أن ابن الرومي ظاهرة فردية متميزة حقاً في الشعر العربي وتياراته ولكنه ليس ذلك التميز الباقي وإنما هو تميز الغرابة بعض الغرابة في تفاصيل الشعر وليس في أنماطه . [7] أما طه حسين فإنه يعبر عن رأيه في ابن الرومي بطريقته الخاصة فيقول : " أما ابن الرومي فهو سهل في شعره لا يريد أن يشق على نفسه ولا على

---

(١) رسالة الغفران ١٦١ - ١٦٤ .
(٢) حصاد الهشيم صـ ٢١٥ .
(٣) حصاد الهشيم صـ ٢٨٢ .
(٤) ابن الرومي للعقاد صـ ٥ .
(٥) ابن الرومي صـ ٨ .
(٦) دراسات في الشعر المعاصر صـ ٢٣١ .
(٧) تاريخ الشعر العربي صـ ٥١٧ .

سامعيه وهو يرسل لسانه على سجيته كما يرسل نفسه على سجيتها فهو من أقل الشعراء كلفاً بالغريب وايراداً له وعنايته بالجمال اللفظي قد تحس أحياناً ولكنها تلتمس فلا توجد فى كثير من الأحيان ، وقد تروعك سهولة اللفظ في البيت أو البيتين ولكنك لا تستطيع أن تقرأ قصيدة كاملة دون أن تجد فى هذه القصيدة من الألفاظ ما يغيظك أحياناً ويضيق به صدرك أحياناً أخرى " [1] وهكذا أثار شعر ابن الرومى كثيراً من الآراء والأحكام النقدية فى القديم والحديث وفتح آفاقاً رحبة لدراسات خصبة حول التصوير الشعرى والتجسيم والتشخيص والهجاء الساخر وظاهرة الاستقصاء والإسهاب وطول النفس فى القصيدة العربية ، وتأثير الثقافة الأجنبية فى الشعر العباسى .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

❊ إنه تراث حافل بلاشك توارثه الشعراء من بشار إلى أبى تمام والبحترى وتناهى إلى ابن المعتز فى القرن الثالث الهجرى فكان خليقاً أن يتأثر به ويحنو حنوه ويجيل النظر فيه ويعبر عن رأيه فيما يتناوله من قضايا وما يسلكه من اتجاهات ومذاهب .

وابن المعتز شاعرموهوب تفيض شاعريته رقة وعذوبة وسحراً وهو مع ذلك علم من أعلام النقد الممتازين فى عصره بل إنه أعظم نقاد عصره آثاراً وأكثرهم عناية بالبحث فى النقد والتأليف فيه . [2] كما يعتبر ابن المعتز إماماً من أئمة البلاغة والبيان فقد كانت له آراء ناضجة واهتمام خاص بألوان البيان وأساليب البديع وترف الأداء .

لقد كان لابن المعتز آثار كثيرة فى النقد والبيان أهمها : سرقات الشعراء وطبقات الشعراء ورسالة فى محاسن ومساوىء شعر أبى تمام ومجموعة

(١) من حديث الشعر والنثر صـ ١٣٦ .
(٢) ابن المعتز لخفاجى صـ ٥٢٩ .

رسائل تتضمن كثيراً من آراء ابن المعتز ونظراته فى الأدب والنقد والبيان ... وكتابه " سرقات الشعراء " يشير إليه الآمدى ويذكره صاحب الفهرست ووفيات الأعيان وشذرات الذهب ، وكما يفهم من هذه الإشارات فإن الكتاب لم يكن قاصراً على ذكر السرقات بل كان يتضمن كثيراً من الآراء النقدية فى شعر كثير من فحول الشعراء وبيان ما أخذه النقاد عليهم من مآخذ وما أحصوه من عيوب ... أما كتابه " طبقات الشعراء " فإنه يتناول فيه طبقات الشعراء المخضرمين والمحدثين بتوسع واستقصاء ويفصل القول فى مذاهبهم واتجاهاتهم ومايشتهرون به من أغراض وما أثر عنهم من روائع الشعر وهو فى خلال ذلك يورد كثيراً من النصوص التى يستشهد بها على مايقول وقد يشرح ويعلق ويوازن ويبدى رأيه وهو يصدر فى الغالب من أحكامه عن روح شاعر ، وبصيرة ناقد ، وإحساس متذوق . وفى رسائل ابن المعتز كثير من آرائه النقدية وحسن تذوقه واحاطته الشاملة بوجوه البلاغة والبيان ، وهو يدلى بآرائه هذه فى شتى القضايا التى أثيرت فى عصره ومن قبله ، كما أنه كان صاحب نظر ثاقب وتقدير سليم لوجوه الشعر وضروب التصوير فيه وهو يعنى عناية بالغة بشعر المحدثين ويشيد بهم ويعرف مالهم من وزن وقدر . ولابن المعتز رسالة فى محاسن شعر أبى تمام ومساوئه [1] وهى رسالة لها قيمتها النقدية وهى أصل من الأصول التى اعتمد عليها الآمدى فى موازنته ونقده لشعر أبى تمام . [2]

وإذا كانت هذه هى منزلة ابن المعتز فى النقد فإن له مكانته ومنزلته كذلك فى البلاغة والبيان إذ أنه تناول فى كتابه البديع شتى أساليب البديع والجديد ووجوه الإحسان فى القول .

وألوان البديع عند ابن المعتزخمسة : الاستعارة - التجنيس - المطابقة - رد العجز علي الصدر - المذهب الكلامى . ويذكر من محاسن الكلام والشعر : الالتفات - الاعتراض - الرجوع - حسن الخروج - تأكيد المدح بما يشبه الذم - تجاهل

---

(١) الموشح صـ ٢٠٧ .
(٢) ابن المعتز صـ ٥٢٨ .

العارف – الهزل الذى يراد به الجد – حسن التضمين – التعريض والكناية – الافراط فى الصنعة – حسن التشبيه – لزوم ما لا يلزم – حسن الابتداء . [1]

وقد اعتمد كثير من علماء البلاغة والبيان على كتاب ابن المعتز فى البديع اعتماداً وثيقاً كما كان شعره مصدر دراسات قيمة فى أبواب البلاغة والبيان وألوان البديع . وكثير من شواهد البديع عند المتأخرين من المشتغلين بعلوم البلاغة هى من الشواهد التى أوردها ابن المعتز فى كتاب البديع . والكتاب ينبىء عن ذوق وسعة اطلاع وفطنة واقتدار براعة عرض وجودة اختيار وميل إلى الدراسة التطبيقية الواسعة ألتى تتيح مجالاً رحباً للنظر والتروى وحسن التذوق وسلامة الحكم وصواب الرأى . ويقرر كارل بروكلمان أن كتاب البديع هو أول بحث منهجى فى الشعر والبلاغة . [2] ويجمع الباحثون كذلك على أنه أول مؤلف فى البديع وصنعة الشعر ويشيدون به ويعدونه فتحاً جديداً . [3] ويقول ابن المعتز : " وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد " . [4]

وقد نشط العلماء والأدباء لدراسة هذا الكتاب وأثيرت بحوث قيمة كان لها آثار بالغة ونتائج كبيرة وصار كتاب البديع بذلك مصدراً ممتازاً من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ... ولقد كان له فضل فى انتقال النقد إلى طور جديد هو طور العناية بالصورة وتوجيهه إلى دراسة الشكل بعد أن كان الجهد محصوراً في نقد المعانى والأفكار . [5]

ولم يقف العلماء عند حدود ما درسوه من بديع ابن المعتز بل إنهم أخذوا يتوسعون ويحدثون له أبواباً ويخترعون ألقاباً كما فعل قدامة فى كتابه " نقد الشعر

---

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز والدراسة الشاملة عن ابن المعتز للدكتور خفاجى ط : دار العهد الجديد .

(٢) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار صـ ٥٨ .

(٣) العمدة جـ١ صـ ٢٣٥ – معاهد التنصيص جـ ١ صـ ١٤٦ – أدب اللغة لمحمد دياب جـ ١ صـ ٤٥ – الزيات صـ ٢٧٦ الصبغ البديعى لأحمد موسى ٩٢ – ١٠١ ، تاريخ البلاغة العربية للشعروای ١٠٣ – ١٠٧ مخطوطان بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

(٤) البديع صـ ١٠٦ . (٥) دراسات في نقد الأدب العربى لطبانة صـ ١٧٧ .

" وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين وابن رشيق في العمدة وابن أبى الإصبع المصرى فى كتابه " تحرير التحبير " [1] وابن منقذ فى كتابه " التفريع فى البديع " وصفى الدين الحلى فى بديعيته فى مدح الرسول التى سماها الكافية البديعية .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

هكذا كان لمدارس التجديد واتجاهاتها الفنية وما قام بشأنها من خصومات أدبية أثر بالغ في رواج البحوث النقدية وازدهار الدراسات البلاغية والموازنات الأدبية والآراء القيمة فى نقد الشعر والموازنة بين الشعراء . ومن أشهر من كتب فى هذا المنهج ابن المدير فى " الرسالة العذراء " وقدامة فى " نقد الشعر " و" نقد النثر " والآمدى فى " الموازنة " وأبو هلال فى " الصناعتين " والجرجانى فى " الوساطة " وابن رشيق فى " العمدة " والخفاجى في " سر الفصاحة " وعبد القاهر فى " أسرار البلاغة العربية " و " دلائل الإعجاز " وابن الأثير فى " المثل السائر " . [2]

وكان من أثر هذا الرواج والازدهار أن ازدادت النظرة إلى الأدب أعماقاً وامتدت آفاقاً فأصبحت علوم الأدب تشمل علوم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم والتاريخ وعلم الجدل والاستدلال وغيرها مما يساعد على تقويم اللسان وتصحيح الملكات وتهذيب الفطر الأدبية .

وبهذا العمق وعلى مستوى هذا الامتداد أخذت الدراسات الأدبية والنقدية سمتها المبدع المتطور في العصر الحديث على أساس من التمايز والتخصيص والتركيز والتحليل والاستيعاب فى مختلف الاتجاهات وعلى شتى المستويات : فى المذاهب الفنية والاتجاهات الأدبية والدراسات الجمالية ونقد الشعر والتحليل الأدبى والموازنة بين الشعراء وتناول أهم القضايا الأدبية والنقدية من وجهة نظر عصرية متقدمة ....

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٤٦٥) بلاغة .
(٢) مذاهب الأدب لخفاجى صـ ٨٠ .